

الدرس السادس والثلاثون

تفسير سورة القيامة: [٢٢ : ٢٧]

{وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ

يُفْعَلُ بِهَا فَاقِرَّةٌ (٢٥) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧)}

وبإزاء هؤلاء المكذبين هناك صنف آخر، وهم المؤمنون الذين أقرّوا بالمعاد وآمنوا بالله ورسوله، وصفهم الله سبحانه وتعالى وصفاً رائعاً بديعاً ، فقال: { **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)** } : هؤلاء هم أهل الجنة ، وهذه الآية من أقوى أدلة أهل السنة والجماعة على إثبات النظر إلى وجه الله الكريم ، أهل السنة والجماعة يثبتون رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة في مقامين ، في عرصات القيامة ، يعني في مواقف الحساب ، كما دل على ذلك [حديث أبي سعيد وحديث أبي هريرة في صحيح البخاري] المسمى حديث الصورة أو حديث الشفاعة الطويل .. وبعد دخولهم الجنة، (ناصره)، من النظره وهي البهاء، والجمال، والرونق، الذي اكتسبته بسبب كونها: { **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** }

(وناظرة)، من النظر، وهو المعاينة بالأبصار. وكلمة (نظر)، لها ثلاث استعمالات في لغة العرب :

- إما أن تأتي مطلقة : كقول القائل أنظرنني ، فتدل على التريث والانتظار
- وإما أن تأتي متعدية بـ (في) : فتدل على التأمل والاعتبار ، كقولك نظرت في المسألة ، نظرت في الأمر

- أو تأتي متعدية بـ (إلى) : فتعني النظر بالأبصار كما جاءت هنا
فلا يختلف العرب أن نظر إذا تعدت بـ إلى فإنها تدل على المعاينة بالأبصار ، فدلّت
هذه الآية دلالة صريحة على نظر المؤمنين إلى ربهم يوم القيامة.
و هذه عقيدة أهل السنة والجماعة، دل عليها الكتاب، والسنة والإجماع. فأما دلالة
الكتاب فكما في هذه الآية، وفي قول الله تعالى: { **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ** }
[يونس : ٢٦]: فسر النبي صلى الله عليه وسلم: الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله
الكريم^(١).

وقوله تعالى: { **هَمَّ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ** } [ق : ٣٥]: فسر المزيد بأنه النظر
إلى وجه الله الكريم.

واستنبط قوم من السلف، ومنهم الإمام الشافعي من قول الله تعالى: { **كَلَّا**
إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمئِذٍ لَّحَجُوبُونَ } [المطففين : ١٥]: إلى قوله: { **عَلَى الْأَرَائِكِ**
يَنْظُرُونَ } [المطففين : ٣٥]: إثبات النظر إلى وجه الله الكريم، فقال لما حُجِبَ أولئك
في السخط ، نظر هؤلاء في الرضا، وهذا من دقيق فهمه -رحمه الله- .
كما دلّت السنة المتواترة على إثبات الرؤية، حتى عُدَّت أحاديث الرؤية من الأحاديث
المتواترة، كما قال الناظم^(٢):

مما تواتر حديث من كذب ومن بنى لله بيتا واقرب
ورؤية شفاعة والحوض ومسح خفين وهذي بعض

(١) أخرجه مسلم رقم (١٨١).

(٢) ناظمها: محمد التاودي في (زاد الجلد الساري)، حاشية على البخاري.

والتواتر هو أقوى أنواع الثبوت في السنة النبوية ، وجاء فيها أحاديث صحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن لعالم دفعها و لا منعها ، ومنها حديث أبي سعيد وأبي هريرة وهما في الصحيحين: (**أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟" قَالُوا: لَا. يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: "هَلْ تُضَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟" قَالُوا: لَا. يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: "فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ**)^(٢)، ما شاء الله.

وفي الصحيحين عن جرير بن عبد الله: **كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: (أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا، لَا تُضَامُونَ - أَوْ لَا تُضَاهُونَ - فِي رُؤْيَيْهِ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا)**^(٣) .. يعني يريد بذلك صلاة الفجر ، وصلاة العصر

وفي الصحيحين عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(جَنَّاتٍ مِنْ فِضَّةٍ أُنِيَّتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّاتٍ مِنْ ذَهَبٍ، أُنِيَّتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِذَاءَ الْكَبِيرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ)**^(٤) .. نسأل الله من فضله

وفي أفراد مسلم عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **(إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وَجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا**

(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٥٨١)، ومسلم رقم (١٨٢).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).

(٤) أخرجه البخاري رقم (٤٨٧٨).

أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ. وفي رواية: وزادُ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ } [يونس: ٢٦] (١).

وفي أفراد مسلم عن جابر في حديثه (فَيَتَجَلَّى لَهُمْ وَهُوَ يَضْحَكُ) (٢)، وذلك في عرصات القيامة

وهذا قليلٌ من كثير من الأحاديث الثابتة في السنة في رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة عياناً بأبصارهم، كما انعقد الإجماع أيضاً على هذه المسألة فلا يختلف أهل السنة والجماعة على إثبات نظر المؤمنين إلى ربهم يوم القيامة .. جعلنا الله ممن يتنعم بالنظر إلى وجهه الكريم

بل إن المؤمنين يتفاوتون في هذا فمنهم من يرى ربه في الجنة بكرة وعشيا ، ومنهم من يراه يوم المزيد وهو ما يقابل يوم الجمعة في الدنيا، على حسب مراتبهم نسأل الله أن يعلي منازلنا عنده .

وأنشد ابن القيم -رحمه الله- في ميميته يصف هذا الحال يقول :
 فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة ... أمن بعدها يسلو المحب المتيمُّ
 ولكننا سبى العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلمُ
 وقد زعموا أن الغريب إذا نأى ... وشطَّت به أوطانه فهو مغرُمُ
 وأي اغتراب فوق غربتنا التي ... لها أضحت الأعداء فينا تحكُمُ
 فحيَّ على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيمُ
 نسأل الله أن يبلغنا جنات عدن، و أن ينظرَ وجوهنا بالنظر إلى وجهه الكريم.

(١) أخرجه مسلم رقم (١٨١).

(٢) أخرجه أحمد رقم (١٤٧٢٠).

وأنكرت المعتزلة، ومن لف لفهم، من الإباضية، و الزيدية، و الرافضة، النظر إلى وجه الله الكريم وقضوا على أنفسهم بالحرمان! زعموا أنه لا يمكن أن يرى يوم القيامة واستدلوا بدليلين ..

أحدهما : قول الله تعالى لموسى عليه السلام حينما قال : { رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ } .. فقال له ربه : { لَنْ تَرَانِي } [الأعراف : ١٤٣] .. فأتى بـ (لن) التي تدل على النفسي المؤبد. وهذا خلاف اللغة فقد ردّ عليهم ابن مالك من أئمة اللغة، فقال في ألفيته:

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدًا فَقَوْلُهُ أَرُدُّ وَسِوَاهُ فَأَعْضُدَا

فيقال جواباً عنهم إن قول الله تعالى لموسى (لن تراني)، أي في الدنيا، ولو كانت رؤيته ممتنعة، ولا يمكن أن تقع، لعب على موسى وعدّ سؤاله فاسداً، كما عتب على نوح لما سأل سؤالاً فاسداً وقال: { إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي } [هود : ٤٥] فقال له: { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [هود : ٤٦].

لكنه لم يعب على موسى أن سأل رؤيته، وإنما أجله لعلمه أن لا يطيق ذلك في الدنيا، وأحاله على أمرٍ ممكن فقال: { لَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي } [الأعراف : ١٤٣]، ولو شاء الله لأقرّ الجبل ، لكن أراد أن يبين لموسى أنه لا يطيق ذلك { فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا } [الأعراف :

[١٤٣]

أما دليلهم الثاني: فهو قول الله تعالى: { **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ** } [الأنعام : ١٠٣]: وقد أجاب أهل السنة عنه بجوابين .. أحدهما : جواب عائشة رضي الله عنها: لا تدركه الأبصار في الدنيا

و الجواب الثاني : أن المنفي هو الإدراك الذي بمعنى الإحاطة، ونفي الإدراك لا يستلزم نفي الرؤية، فقد ترى الشيء ولا تدركه، ألسنا نرى القمر؟! بلى نراه ولكن لا ندرك تفاصيله، نرى الجبل ولا ندرك تفاصيله، فلا يلزم من نفي الإدراك نفي الرؤية ، فيمكن أن تقع رؤية دون أن يقع إدراك.

وفي قصة موسى وفرعون قال الله: { **فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** } [الشعراء: ٦١، ٦٢]، فقد حصلت الرؤية يحصل الإدراك.

وغير أن هؤلاء الضالين لا يرفعون رأساً بالنصوص، وإنما يعتقدون ثم يستدلون، والواجب أن يستدل الإنسان ثم يعتقد، ولهذا سمي الدليل دليلاً لأنه يقود المستدل به إلى ضالته ، أما أن يقعدوا القواعد ويضعوا المقدمات ثم يعرضون عليها النصوص فما وافقها أمضوه وما خالفها ردوه وتؤولوه. فهذه ليست طريقة أهل السنة ، ولهذا طوّحوا يمينه ويسره وضلّوا ضلالاً بعيداً ، وحكموا على أنفسهم بالحرمان من أعظم نعيم وهو النظر إلى وجه الله الكريم

{ **وَوَجْوهُ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)** } [سورة القيامة]:

تلك وجوه الكافرين، باسرة يعني: كالحه، يعني: عابسة.

كما قال الله تعالى في التنزيل بين القومين يوم القيامة: { **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨)**
ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرَهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) **أُولَئِكَ**
هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ (٤٢) } [سورة عبس]: والوجه هو عنوان الإنسان، الوجه هو
 مرآة القلب، فما يكون في القلب يفيض على الوجه، فلذلك لما سر المؤمنون وتنعموا
 بالنظر إلى وجه الله الكريم؛ نضرت وجوههم.

وأولئك لما قنطوا من رحمة الله وأدركوا أنهم في هلكة؛ بسرت وجوههم وكحلت
 وعبست والفاقرة هي المصيبة الداهية التي تقصم الفقار وهو الظهر.

ثم بعد ذلك جرى فصل مؤثر يكشف عن حال احتضار الإنسان، وهي السكرة
 التي لا بد لكل حي أن يتجرعها إنها سكرة الموت: { **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ**
ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ } [ق: ١٩].

يقول عز وجل: { **كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ**
(٢٨) وَالتَّقَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسَاقُ (٣٠) } [سورة القيامة].

{ **كلا** } ، وكلمة كلا هاهنا إما أن تكون :

- كلمة ردع وزجر

لذلك المنكر الذي ينكر البعث والمعاد

- وإما ان تكون بمعنى حقاً

فيكون هذا من باب التحقيق لأنه حق لا شك فيه.

هذه اللحظات العصبية من أشد ما يمر على ابن آدم ، وهي لحظات الاحتضار ومفارقة الدنيا. بعد هذا العصف الذي مرّ به، وتقلب فيه في أحوال الدنيا؛ ذهاباً وإياباً، وقياماً وقعوداً، واتجاراً، وزواجاً، وغير ذلك من مناسط الحياة، يصل إلى حال لا يتمكن فيها من الحراك ، ولا يجلب إلى نفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضرراً يمدد على سريرته في بيته ، أو في المستشفى وأهله من حوله لا يملكون له شيئاً. والتي تبلغ التراقي هي الروح التي كانت تعمّر ذلك الجسد طوال عقود من الزمان ، قلت أو كثرت أو زادت أو نقصت : { وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ } [فاطر : ١١] ، والتراقي: هي العظام التي تكتنف ثغرة النحر، الممتدة من العاتق إلى ثغرة النحر، واحدها ترقوة ، كما قال تعالى في الآية الأخرى: { فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ } [الواقعة : ٨٣] ، يعني: من حوله أو هو نفسه أيضاً، ولكنه نظر لا يثمر شيئاً، فقد يبصر المحتضر ما لا يبصر غيره من ملائكة الرحمن فإنهم يحضرونه، فأما المؤمن فتحيط به ملائكة الرحمة، وأما الكافر فتحيط به ملائكة العذاب والعياذ بالله: { حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ } (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ } [سورة الأنعام]

وهو موضع واحد، فإن الحلقوم هو القصبه الهوائية ، فالروح تتجمع حتى تصل إلى هذا الموضع الذي تغادر فيه الجسد الذي كانت تعمره في الدنيا.

فهذه اللحظة العصبية يبلغ فيها المرء من الكرب و السكرات مبلغاً شديداً عظيماً ، حتى أن نبينا صلى الله عليه وسلم لما: حضرته الوفاة ، كان يضع على وجهه الخميصة ، فإذا اغتم كشفها ليسترد النفس ويقول : (اللَّهُمَّ اعْنِي عَلَى سَكَرَاتِ الْمَوْتِ) ، وهذه

السكرات تنال المؤمن والكافر، إلا أنها للمؤمن رحمة؛ يكفّر الله تعالى بها ما شاء من السيئات أو يرفعه بها ما شاء من درجات التي لم يبلغها بعمله، وأما الكافر فتكون له عذاباً. فأما لحظة مفارقة الروح بدن فيتميّز فيها المؤمن عن الكافر، فتخرج روح المؤمن خروجاً لطيفاً؛ تُسَلُّ كما تُسَلُّ الشعرة من العجين، وكما تنزل القطرة من فم السقاء أي: القربة، وأما الكافر فإن روحه تتفرق في جسده فتُنزَع نزعاً اليماً كما ينزع السّفود من الصوف المبلول، والسّفود حديدة فيها نتوء، فاذا وضع في الصوف علق به وشق نزعته. كما قال ربنا عزّ وجلّ: **{ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا }** [النازعات: ١]، فالنازعات: الملائكة التي ينزعون أرواح الكفار نزعاً، والناشطات: الملائكة الذين ينشطون روح المؤمن نشطاً، كالذي معه أنشودة يتناول بها الشيء بخفة ويسر، فهذه اللحظات لا بد منها لكل حي: **{ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ }** [آل عمران: ١٨٥].

وفي تلك اللحظات العصيبة يقال: **{ مَنْ رَاقٍ }** [القيامة: ٢٧] أي: هل من "طبيب شاف" طبيب حاذق ماهر يدرك هذا المحتضر؟، أو أن المقصود بـ **{ مَنْ رَاقٍ }** لما فنيت بأيديهم الوسائل الحسية من الأدوية والعلاجات انتقلوا الى الوسائل الإلهية، كما قال الشيخ عبدالرحمن السعدي - رحمه الله - الوسائل الإلهية من الرقية الشرعية، فيبحثون عن راق يرقى: **{ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ }** [القيامة: ٢٧]، وهذا حال الناس حينما يحتضر المحتضر بين أيديهم، يتصلون بالإسعاف، و يحملونه إلى المستشفيات المتخصصة لاستنقاذه من قدر الله، وأنى لهم!.